Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 6, Dec. 2016

Published on Web 01/12/2016

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الثاني ـ العدد السادس، ديسمبر 2016م

النظام اللساني والتواصل الحيواني

أ. إبراهيم عبد السلام صافار*

مقدمة:

علاقة النظام بالتواصل علاقة الجزء بالكل، باعتبار أن مفهوم اللغة كنظام أوسع أشمل؛ بحيث يشمل التواصل ويتعداه، وترتبط قضية التعبير والتواصل باللغة على الحقيقة أو المجاز، ولعل النظر والتدقيق في مسألة التعبير عن الحاجات عند الإنسان ومقارنتها بالحيوان؛ يُثري المسألة، ويُجدّد الكثير من الأفكار اللسانية العربية المعروضة في الكتب العربية القديمة قبل ظهور علم اللسانيات الحديث، وذلك بالبحث عن نقاط التلاقي، ورصد نقاط التمايز التي تمتاز بها الرؤية العربية عن غيرها من الرؤى اللسانية المعاصرة، ومن ذلك رصد تمايز الإنسان عن غيره من الحيوان عبر سلسلة من الأفكار المتجانسة حول الكون بجَماداته والإنسان ودوره المنوط به، وأهدافه المرجوة، وكثيرا ما يعرض لنا، أو نتخيل أن الإنسان يعيش في هذا الكون، كما يتهيأ للناظر أول وهلة؛ لكن العالم في الإنسان بواسطة حواسه، أو مدخلاته الخمسة، وبغية توضيح مدى ترابط هذه الصلة بين الإنسان، والعالم الذي يسكن فيه؛ نحوّل الكون إلى نظام دلالي، يكون فيه الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك القدرة على تفهّم هذا النظام، وتفسيره وتحليله عبر أدواته ومدخلاته ومخرجاته.

قضية اللغة الإنسانية تنضوي تحت القدرة البيانية عند الإنسان؛ باعتبار أن الإنسان في مقدوره واستطاعته بلوغ حاجاته بطرق بيانية متعددة، وتأتي اللغة الإنسانية وفق نظامين بيانيين هما اللفظ والخط، كما أننا لا ننظر إلى الأنظمة البيانية الإنسانية بمعزل عن بقية الأجناس الحيوانية الأخرى؛ وإنما ندرس هذه الظاهرة الإنسانية، ونقارنها بغيرها من الأنظمة التواصلية لدى الأجناس الحيوانية بكونها كائنات متفاهمة

* قسم اللغة العربية – كلية التربية – جامعة مصراتة.

أو متخاصمة فيما بينها، ونبحث في الخصائص التي تتفوق بها القدرة الإنسانية، وعلى ذلك فإننا لا نناقش اللغة الإنسانية بكونها الأداة الوحيدة التي يمتلكها الإنسان للتعبير؛ بل نرى أن اللغة في كثير من الأحيان قاصرة عن بلوغ المراد، وأن الإنسان يقف عاجزاً أمام بعض المعاني؛ وخاصة في الاتصال الشفوي، وكثيراً ما يجنح المتكلم إلى استعمال أنواع من الحركات الإشارية المرئية مثل تحريك اليدين، أو قبض جلدة الوجه، أو الغمز بالعين، وهذه الحركات المصاحبة لكلام المتكلم متى ما استُخدِمتْ بقصد؛ فإنها تُنْتِج معنى أطلق عليه الجاحظ (خاص الخاص)[1]، وهذا النوع من المعاني لا أسماء له، كما أن هناك أشياءً أخرى لا أسماء لها على غرار الألوان الناتجة من تمازجها، وكذلك الروائح الناتجة من التراكيب؛ فهذه كلها لا أسماء لها في اللغة، وإنما تشتق لها أسماء جديدة بعد إنتاجها، يضاف إلى ذلك أن الحاجة تتعدى العلامة اللغوية باعتبار أن مدلول الكلمة هو ما تشير إليه من المعاني القائمة في صدور العباد، وهذا لا يعني أننا نُغفل قيمة اللغة البشرية بل على العكس من ذلك؛ فاللغة سبيل الوجود وكُنه الحياة، ولا يمكن أن يحدث العلم دون اللغة، ولها وسيلتان، الأولى شفهية للقريب من الحاجات، والثانية مكتوبة للبعيد من الحاجات، ونعمة الكتابة من أجل وأعظم النعم التي حبا الله بها الإنسان على الأرض، وأيضاً يُنظر إلى الكتابة على أنها طريق الحضارات إلى الخلود، والبقاء رغم مرور الزمن، وبذلك فإن اللغة الإنسانية تأتي من خلال نظامين من الأنظمة البيانية التي يمتلكها الإنسان.

شروط النظام:

لا شيء يمنع من طرح السؤال، ما هي الشروط التي ينبغي أن يخضع لها نظام الدلالة، أو نظام الاتصال كي يُسمى لغة؟

طلبا للإجابة عن السؤال المتقدم نبدأ بعرض ما هو ملخص في كتب اللسانيات الجامعية عن خصوصية الإشارة اللسانية: من المعتاد وصف الإشارة اللسانية منذ (فردينان دو سوسور) بالسمات التالية:

1. أنها ذات محتوى دلالي (مدلول) وتعبير صوتي (دال): يجمع بين أفهوم وصورة سماعية.
2. الصلة بين الدال والمدلول هي في آن معا اعتباطية وضرورية، ولا توجد أية صلة داخلية بين الأفهوم الممثل، وتتابع الأصوات.
3. تتعاقب الإشارة (المقول اللساني) في الزمن، ولا يمكن أن تجتمع وحدتان في نقطة واحدة من تسلسل الكلام؛ بل تأخذان قيمتهما من تعاقبهما وتعارضهما على السلسلة[2].

وبذلك فإن (سوسور) يرى في بعض الصفات كالتعبير بالصوت، واعتباطية العلامة، وتعاقبيّتها بحيث لا يجتمع صوتان في زمن واحد مع التضاد بين الأصوات، ومن خلال ذلك يستطيع المستمع تمييز الصوت عن غيره من الأصوات، وبها يتميز النظام اللغوي الإنساني عن غيره من الأنظمة التواصلية[3]، وهذا في المجمل وصف للوسيلة أو الأداة المستخدمة لممارسة اللغة، فالمنطوق أو المكتوب (المنتَج) تمّ وصفه بالكلام في مقابل اللغة وفق تفريق (سوسير) بين اللغة والكلام، واستخلص من وصف الكلام تعريف اللغة. ولتوضيح الخلل الحاصل في التوصيف السابق للغة نطرح السؤال التالي:

ماذا لو أسقطنا هذه الصفات على أنظمة التواصل الحيوانية؛ بكونها تعيش في قطعان، أو جماعات، وتمارس أنماطا معينة من السلوك الحياتي، وتشترك مع الإنسان في ممارستها لفعل الحياة، فهي تتنفس، وتتوالد، وتحيا، وتموت، وتأكل وتشرب، وتتسافد، وتصدر أصواتا تعبر بها عن أغراضها، وفي كثير من كتب اللغة العربية عرضا لما تعرفه العرب والأمم التي سبقتها عن سلوكياتها، وقد جمعت معاجم اللغة وغيرها من الكتب العربية القديمة حول أجناس مختلفة من الحيوان الكثير من المعلومات وفاضلت بينها، ودقَّقت النظر في طرائق معيشتها، وميَّزت بين معارفها، ومعارف الإنسان.

لعل التعبير بالصوت سلوك طبيعي يشترك فيه الإنسان مع الحيوان، وما أصوات الحيوان المختلفة التي نسمعها إلا دليل على أن أصناف الحيوان تمارس نوعا من التعبير عن حاجاتها، والفروقات الحاصلة بين الأصوات التي تصدر عن حيوان معين مثل صوت دعاء الهرة للهر المختلف عن صوت دعاء الهرة لولدها[4]، ومن أسماء أصواتها المذكورة في معاجم اللغة الهَرير والمُواء والخَرْخَرة والصَّئِيّ والتأطُّم والضَّغْو والمُغاء[5]، وهذا الاختلاف في الشكل الصوتي الذي يمكن ملاحظته بالاستماع إليه؛ يستدعي اختلافا في الدلالة على الحاجة، كما أنه لا يمكن للحيوان (الهرة) أن يصدر هذين الصوتين في نفس الوقت والزمن، بمعنى أنهما متعاقبان في الزمن، وأيضاً فهما متضادان ومختلفان، ولهذا استطعنا أن نميز بينهما، وكل هذه الصفات تصف الوسيلة المستخدمة للإبلاغ. وعلى ذلك ما الذي يميز اللغة الإنسانية عن غيرها من الأصوات الحيوانية؟

الأصوات التي يصدرها طائر القطا مختلفة فيما بينها، وأنه قد تهيأ له إخراج بعض الحروف كالقاف، والطاء، والألف، وتعتبر العرب طائر القطا صادقة في تسميتها، وأنها هي التي سمت نفسها بهذا الاسم[6]، كما في تجاوب السنانير بأصواتها ما يجعلنا نشعر بتفاهمها من خلال ما تصدره من أصوات "فإنك ترى من عدد الحروف ما إن كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات ثم ألفتها صارت لغة صالحة الموضع متوسطة الحال"[7]، وفيما يلي بسط لهذه الشروط بشيء من التوضيح.

أولاً: الحاجات

الحاجة صفة من صفات العبد المخلوق، وتحاكي حالة العجز التي يعيشها هذا الكائن عن بلوغ حاجاته، ومتطلباته الأساسية والثانوية، التي تمكّنه من ممارسة ومعايشة الوجود، وهي صفة يشترك فيها الحيوان والإنسان، أو أن الإنسان يتشارك مع الحيوان في بعده الوجودي الأول، وعلى قدر الحاجة وقوتها واتساعها ونموّها تأتي اللغة بالبيان عنها، وأن الإنسان يستشعر مواضع حاجاته بالإفصاح عنها. كما أن عدم قدرة

الإنسان على إدراك حاجاته ومتطلباته بنفسه جعلَه يجنح إلى العيش في جماعة، أو جماعات بشرية، وكل هذه المجموعات المكوّنة من أفراد عاجزة، تتعاون وتترافد فيما بينها، ويقوم فيها الإنسان بممارسة فعل معين نظير ما يقدمه الأخرون من أفعال حتى تتمكن الجماعة من ممارسة الحياة، وتأتي اللغة للحد من حالة العجز المتنامية التي يعيشها الإنسان؛ لأنه لا يستطيع العيش، أو القيام بمفرده. وقد نقلت لنا الكتب العربية القديمة ما في ثقافة الهند وغيرها عن حدود حاجات الحيوان: "فحوائج السنانير لا تعدو خمسة أوجه منها صياحها إذا ضربت ولذلك صورة، وصياحها إذا دعت أخواتها وآلافِها ولذلك وجه، وصياحها إذا دعت أولادها للطعم ولذلك صورة، وصياحها إذا جاعت ولذلك صورة، فلما قلت وجوه المعرفة ووجوه الحاجات قلَّت وجوه مخارج الأصوات، وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها"[8]، وعلى ذلك فإن من بين ما ينقص أصناف الحيوان هو نموّ الحاجات والمعارف، وأن محدودية الحاجة والمعرفة، وثبوتها هو من بين ما جعل الأصناف الحيوانية تقف عند حدود رغباتها الأولية المجبولة عليها، وبالتالي اكتفت بمجموعة من الأصوات التعبيرية، في حين كانت الحاجات عند الإنسان متنامية؛ مما جعل من قدراته التعبيرية في نمو مستمر لإحساسه المتزايد بالعجز عن بلوغ تلك الحاجات المتنامية.

ثانيا: العقول

يعيش الإنسان وسط هذا العالم أو الكون الفسيح، وله مدخلاته الخمسة أو مستقبلاته (الحواس) التي يتولّد عنها العلم الأولي الضروري، وهذه الروافد التي تُمد العقل بالمعلومات الأولية المدركة بالحواس هي التي تجعل الإنسان يستشعر الوجود من خلالها، "ثم تَعبَّد الإنسان بالتفكير فيها والنظر في أمورها والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشريفة وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير والتنقيب والتنقير والتثبيت والتوقف ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها"[9]، وبذلك فإن العقل يلعب دور الوسيط الداخلي بين

المعرفة بمواقع الحاجات اللازبة، مثل علاقة الماء بالارتواء من العطش، وبالتفكير فيما تقع عليه حواسه، وبالتأمل فيها يقوم باستحضار الحكم والمعاني البعيدة، ولا يمكن تبادل المعاني القائمة في صدور الناس، ولا التواصل فيما بينهم إلا بالبيان عنها بالوسائل الممنوحة إليهم.

تتباين المعرفة الحيوانية والمعرفة الإنسانية بالعقول التي تدرك نموّ الحاجة، فللحيوان حواسً مثلما للإنسان حواسٌّ كالشم والبصر والسمع، وأن منها ما يفوق حواس الإنسان: "وجدان الذرة لرائحة شيء لو وضعته على أنفك لما وجدت له رائحة"[10]، وأمثال العرب توضّح قوة وصدق حواس بعض الحيوانات مثل "أحذر من فرخ العقاب وأسمع من قراد وأسمع من فرس"[11]، كما أن العرب "يستدلون بالقردان التي تكون حول المياه"[12] وغيرها من أصناف الحيوان التي تُدرك حاجاتها بحواسها، وتستشعر متطلباتها وشهواتها في طلب السفاد والذرء، وما فيها من النهم والحرص، "حواس هذه الأشكال أدق وأرق وأبصر وأنفذ وإن كان الإنسان يبلغ بالروية والتصفح والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شيء من السباع والبهائم فإن لها أمورا تدركها وصنعة تحذقها تبلغ منها بالطبائع سهواً وهويًّا مما لا يبلغ الإنسان في ما هو بسبيله إلا أن يكره نفسه على التفكير وعلى إدامة التنقير"[13]، وهذا من بين ما يُفرّق المعرفة الإنسانية عن المعرفة الحيوانية، فقد امتاز الإنسان بميزة العقل والتعلُّم، والحيوان مجبول على معارف معينة مخصوصة تأتيه عن طريق الطبع والوراثة، أما الإنسان فإن معارفه تأتيه عن طريق التعلم والتمرن، وإدامة النظر والتفكر.

ثالثاً: الاستطاعة

جاء في معناها: "الاستطاعة والقدرة والقوة والوِسْع والطاقة: متقاربة المعنى في اللغة، وأما في عرف المتكلمين فهي عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك"[14]، وبذلك فهي القدرة على الفعل والإنجاز، والإنسان مختلف عن غيره من مخلوقاته سبحانه وتعالى، وقد كرّمه وفضّله على العالمين "ومن هذا الذي يسره أن

يكون الشمس أو القمر"[15]، يضاف إلى ذلك أن الإنسان مخوّل من المولى عز وجل بالتمكين والتصرُّف، "وكل شيء في العالم إنما هو للإنسان ولكل مخير مختار ولأهل العقول والاستطاعة ولأهل التبين والروية"[16]، وأن الأمور لو كانت مستوية لبطل التمييز، وعلى ذلك لم تكن كلفة، ولم تكن مثوبة، وبقدرة الإنسان على الفعل يتمكن من ممارسة الفعل اللغوي بالتعبير عن حاجاته المتنامية التي استشعرها بالعقل.

تُحقِّق اللغة للإنسان أشياءً تفوق حاجاته ورغباته الحيوانية الأولى، ويتضح ذلك من خلال مقارنة اللغة الإنسانية بأصناف التعابير الحيوانية المختلفة؛ باعتبار أن الحيوان يقوم بإصدار أصوات معينة يحقق من خلالها تواصله الطبيعي الذي يمكنه من ممارسة فعل الحياة، وحدود الحاجات مرتبط بحدود الاستطاعة، والقدرة على الفعل تجعل من الحيوان يعيش في إطار معين من الأهداف والغايات الثابتة، تمكّنه فقط من البقاء على قيد الحياة بما يتوفر له من طعام وشراب، ومتى ما توفر له ذلك استقر وارتضى المقام، وما نشاهده من وثائقيات إعلامية عن هجرة قطعان مختلفة من الحيوان عبر فصول السنة؛ تؤكد ارتباط حياة الحيوانات بالماء والطعام، وأنه في حالة تسقّط لمواقع القَطْر طلباً للنجاة من الموت والظفر بالحياة التي هي غايته، وفي هذا تكمن لذته الحياتية التي يشاركه فيها الإنسان، أما اللذائذ الإنسانية فإنها تتعدى رغائب غيره من الحيوانات بفعل الاستطاعة والقدرة على الفعل الممنوحة إليه من خالقه، ومنها لذة الظفر بالأعداء والرياسة والحُكم ونفاذ الأمر والنهي ولذة الكتابة وغيرها من مُتَع الدنيا بل إنها تجعل من الحياة طريقا للفوز بسعادة الآخرة.

مقارنة بين النظام الشفوي والنظام الكتابي

لبناء نقاش علمي منظم نبدأ من المسلمات والمعلومات المألوفة الاستعمال في مكونات الحدث اللغوي الشفهي، ومكونات الحدث اللغوي الكتابي؛ إذ يتكون الأول – بشكل مبدئي– من لسان/ صوت/ أذن، ويتكون الثاني من: يد (قلم)/ حبر على ورق أو لوحة مفاتيح وجهاز حاسوب/ عين، وهذه الاختلافات الأولية، والبسيطة تجعل من

النظام الشفوي نظاما طبيعيا، يشترك فيه الإنسان مع ما عداه من الحيوان في إصدار الأصوات وسماعها، وبناءً على ذلك يحدث التفاهم بين الأجناس الحيوانية، بينما نلاحظ أن النظام الكتابي خاص بالإنسان وحده، وهو نظام يحتاج إلى الآلة، أو الأداة (القلم) التي سيرسل من خلالها الرسالة، والوسيط (اللوحة/ الورق) الذي سيدون عليه ما يريد المرسِل إرساله، وبذلك فهو نظام صناعي تعليمي؛ وتؤثر فيه التقنية، وتطور من قدراته، ولاشك بأن اختراع الآلة الكاتبة، واكتشاف الورق الرخيص الثمن؛ قد نقل الإنسان نقلة حضارية لا يزال حتى الآن يقطف ويجني ثمارها، وازداد هذا مع اكتشاف الحاسوب ومع هذا يُخيّل للناظر أن التطرق إلى التفكير في النظام الكتابي ظل حبيس الكتب القديمة نتيجة سيطرة الفكر اللساني الغربي على العلوم اللغوية المعاصرة؛ ولم يطرح للتداول والنقاش؛ إن لم نقل تأخر كثيرا عن التأليف، والبحث في الجانب الصوتي (الشفوي)، وتبعاً لذلك خضع التفكير اللغوي بشكل عام للمركزية الصوتية، وتزخر بذلك المؤلفات والكتب التي تتناول الحروف المنطوقة، وهي تتكون، وتتخلّق بدءًا بانطلاق الهواء من الرئتين إلى أن يغادر الشفتين إلى أذن المستمع، وللحروف المنطوقة نعوت، وأوصاف من حيث جهرها، وهمسها، وانفجارها، واحتكاكها، وفي العموم فقد اعتُبِرت اللغة ظاهرة صوتية، تخضع لقوانين الصوت، وبذلك فإن هذه الرؤية تُرسّخ للثقافة الشفوية، وتنظر إلى اللغة من جانبها الطبيعي، وأهملت النظام الكتابي، والحرف المكتوب المختلف عن الحرف المنطوق في طريقة إنتاجه وتواصله، ترى ما سره؟ وكيف يتشكّل؟ ولعل للحرف المكتوب مخرج يختلف عن الحرف المنطوق، وما هو سر الحرف المُصَوَّر على القرطاس؟ وهل هو معادل تصويري للحرف المنطوق المرسَل في الهواء؟ أو أنه اقتُلِع من المكنون، وقطع طريقه عبر مجاري الدم في العروق، تُصاحبه علاقة فكرية، وعضلية حتى تمّ إنتاجه في شكل كلمات وتراكيب وجمل؟ أو أنه على الورق المسطّح لا حراك به، جثة المعنى للصوت الشفوي الحي المفعم بالأنفاس وحركات المتكلم؟ وأسئلة أخرى تَعِنُّ للخاطر عند مثوله، وتسَطُّرِه من اليمين إلى اليسار

(في اللغة العربية)، وتشابك الحروف لتصنع كلمة، يتلوها فراغ أو بياض، يفصل بين الكلمة والأخرى، وتتراصف الجمل على السطور حتى يكتمل بنيان النص المكتوب، ومن بعد تأتي العين لترصد انتصاب هذه الأشكال والعلامات.

اللغة تجمع بين النظام الشفهي والنظام الكتابي، وكلاهما معادل تصويري يختار الإنسان الأنسب له للتعبير بواسطته عما يريد: "واللسان يصنع في جويّة الفم وهوائه الذي في جوف الفم وفي خارجه وفي لهاته، وباطن أسنانه، مثل ما يصنع القلم في المداد والليقة والهواء والقرطاس، وكلها صور وعلامات وخلق مواثل، ودلالات"[17] وعلى ذلك فإن الفعل القولي الشفوي يساوي الفعل الخطي الكتابي، وأن العلاقة بينهما علاقة تكافؤ وتساوٍ في الدلالات على المعاني، وأن فعل العضو (اللسان) في الفم بحركته، هو نفس فعل وحركة القلم على الورق.

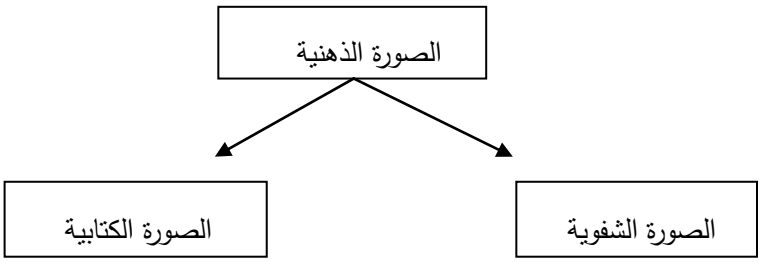

ومثلما تنشأ العلاقة بين الشيء وصورته السمعية؛ كذلك تنشأ نفس العلاقة بين الشيء وصورته الكتابية، "فيعرف منها ما كان في تلك الصور لكثرة ترددها على الأسماع ويعرف منها ما كان مصورا من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار"[18] وبفعل كثرة تكرار، وتداول هذه الصور والعلامات على الأسماع في الاتصال الشفوي، وعلى العيون في الاتصال المكتوب يتعرف المستعملون لهذه الإشارات البيانية على معاني الصوت المسموع، وعلى معاني الشكل المرئي (المقروء) مثل "استدلالهم بالضحك على السرور وبالبكاء على الألم"[19] هذا من حيث التكون، والتخلُّق فكلا

النظامين له طريقة إرساله، واستقباله الخاصة به؛ لكن ما المميزات التي يمتاز بها كل نظام عن الآخر؟

يمتاز النظام الشفوي بالوضوح، وسرعة الفهم، "وفهمك لمعاني كلام الناس، ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً"[20]، وهذه السرعة في الفهم هي ميزة في حقيقة النظام الشفوي، بينما يحتاج الكاتب إلى أن يبسط في الكلام، وأن يعيد ويكرر للقارئ حتى يتمكن من الفهم، "وليس له أن يهذِّبه جدا، وينقّحه ويصفّيه ويروّقه، حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، وأسقط زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنه إن فعل ذلك، لم يُفهَم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاما مِرارا وتَكراراً؛ لأن الناس كلهم قد تعوّدوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم"[21] حيث ينبني التواصل الشفوي على خصائص تفرضها الآنية في المنجز الكلامي، ويترتب على ذلك اشتراطات تداولية بين طرفي التواصل الشفوي (متكلم/ مستمع)، وبذلك فإن طبيعة القناة التواصلية الشفهية تتسم بالوضوح وسرعة الفهم، على خلاف التواصل المكتوب بطبيعة نظامه الذي يحتاج إلى ألفاظ توضح ما به من غموض، وتأتي كالشوائب التي تساعد المتلقي على الفهم.

يتميّز النظام الكتابي بعدم حاجته لغيره من الأنظمة البيانية "القلم مكتف بنفسه، ولا يحتاج إلى ما عند غيره، ولابد لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك خاص الخاص"[22] وهي تلك الحركات التشبيرية التي يقوم بها المتكلم أثناء ممارسة فعل التكلّم، أما النظام الكتابي فهو نظام بياني مكتفٍ بذاته، وغير محتاج إلى غيره من الأنظمة البيانية الأخرى (الإشارة والعَقْد والنّصْبَة)، في حين يُعتبر النظام الشفوي قاصراً في عدم اكتفائه بنفسه، ويحتاج إلى حركات المتكلم، وإشاراته، وبذلك ندرك وجود قصور في تعبيرية النظام الشفوي، في حين نجد قوة النظام الكتابي.

وقد غابت هذه الرؤية التي تساوي بين الفعل الشفهي والفعل الكتابي في التفكير اللغوي المعاصر نتيجة وقوع الفكر الغربي المعاصر منذ القرن التاسع عشر تحت تأثير

عالم الأحياء (تشارلز داروين) من خلال كتابه (أصل الأنواع) إذ استقطب اهتمام جل العلماء الذين كانوا يشتغلون بالدراسات التاريخية المقارنة للغات (الهندو – أوروبية)، ودخلت هذه النظرية إلى الفكر اللغوي من خلال بحث (أوجست شليشر/ علم اللغة ونظرية داروين)، وقد عرض فيه أنه يجب على علم اللغة أن يعامل باعتباره أحد العلوم الطبيعية، وتُطبّق عليه نظرية داروين[23]، وحاول الإجابة عن بعض الأسئلة حول التغيرات الصوتية التي تحدث للغات، ولقد استخدمت مصطلحات علم التشريح للإجابة على الأسئلة المتعلقة بالصوت اللغوي، ومن ذلك: إن تكيف الأعضاء الصوتية وتعديلها بشكل عام يعد السبب الحقيقي للتغيرات الصوتية التاريخية في اللغات، وأن التغيير الصوتي يحدث طبقا لقوانين ثابتة متماثلة مع القوانين الطبيعية، وقد كان (داروين) يسوّغ قناعاته العلمية على النظام الطبيعي الذي يعتمد على الأصل مع التعديل الخاضع لقانونه العام (الانتخاب الطبيعي) القائم على النشوء والارتقاء.[24] وبنهاية القرن التاسع عشر لم يعد هناك احترام للنموذج البيولوجي كما كان في منتصف القرن، ولعل ظهور أفكار (سوسير) هي التي أخرجت الدراسات اللغوية في تلك الفترة من المأزق البيولوجي، إذ اعتبر دراسة اللغات تقوم على أنها أنظمة متواجدة في مكان وزمان محددين محاولا بذلك الخروج من الدراسة التاريخية للغة السائدة آنذاك، واشتغل بتدريس علم اللغة العام في أواخر حياته، ثم توفي سنة 1913 دون أن ينشر أي شيء من نظريته، وبعد ثلاث سنوات قرر طالبان من طلابه (شارلز بيلي / ألبرت سينجيهاي) نشر محاضراته في علم اللغة العام، بعد أن قاما بإعادة صياغة المحاضرات من مذكرات الطلاب الجماعية، وبفضل هذه المحاضرات عُرف (سوسور) على أنه رائد علم اللغة في القرن العشرين، وأن علم اللغة بعده لم يعد كما كان قبله.[25] وعلى إثر ذلك نُسب إليه علم اللغة الحديث، ومن تم تتبّع منظرو العرب الجدد خطاه اللغوية، ولم يعودوا يؤصلون أفكارهم اللسانية المعاصرة إلا بالفكر الغربي، وينطلق فكر (سوسور) من المبدأين التاليين:

1. لا وجود للفكرة دون وجود العلامات، وبدونها نكون عاجزين عن التمييز بين فكرتين بشكل واضح ودائم.
2. مبدأ الاختلافات، باعتبار أن العلامة ليس لها خصوصيات لأنها لا تتطابق مع علامة أخرى، ولا توجد في اللغة إلا الاختلافات.[26]

يضاف إلى ذلك أن (سوسير) يعتبر الكتابة صورة زائفة، ومخادعة للصوت اللغوي، "الكتابة تقيم بيننا وبين اللغة حجابا يمنعنا من رؤيتها كما هي. وذلك أن الكتابة ليست ثوبا عاديا تلبسه اللغة بل هي قناع خدّاع تتنكر فيه"[27] وأجرت جميع منطلقاتها على الاهتمام بالجانب الصوتي (الشفوي).

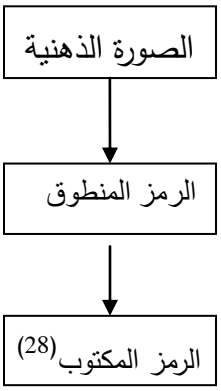

ويتضح من خلال الشكل المتقدم اعتبار الرمز المكتوب ناتجاً عن الرمز الصوتي، وتابعاً له، وعلى ذلك فإن الكتابة في الثقافة الغربية يُنظر إليها من جانبها التسجيلي فقط للصوت المنطوق، ولم يُلْتَفت إلى مفهوم الكتابة، والنظام الكتابي إلا ببدء الاهتمام بالقراءة والقارئ مع اعتبارها تسجيلية للصوت المنطوق، وما هي إلا عملية نسخ لتواصل شفهي، في حين أن الحضارة الإسلامية العربية حضارة تقوم على النص المكتوب[29]، و"فهم العلاقة القائمة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة أمر مهم وحاسم في اللسانيات النظرية واللسانيات التطبيقية، فكل واحد منا في هذا العالم الواقعي يريد

أن يعرف مثلا لماذا يتعلم كل الأطفال المحادثة (الكلام) ولكن العديد منهم لا يستطيعون الكتابة"[30] ويمكن تحسس صفات اللغة المكتوبة في أنها تستخدم تراكيب نحوية معقدة، كما تستخدم أدوات شكلية مترابطة، وتركز على الأركان اللغوية المقدمة من أجل العناية والقصد، وهي في العموم لغة مضغوطة، كما تتميز بالدرجة العالية من الوحدة العضوية[31]، وهذا التحليل اللساني للغة المكتوبة ينطبق على الكتابة بوجه عام كالمراسلات الرسمية والكتب الإيضاحية، أو ما يمكن تسميته بالنثر العادي، وهذه الملاحظات تزداد طبيعتها وحدتها في الكتابة الأدبية بشكل طبيعي، والفرق الأساسي بين اللغة المنطوقة، واللغة المكتوبة يكمن في طبيعة القنوات المستخدمة في كل من هاتين اللغتين[32]، "فعالم الفعل والحادثة الاجتماعي، أي عالم الزمان والصيرورة، له ارتباط بالأذن خاص ووثيق، الأذن تصغي وتترجم ما تسمعه إلى سلوك عملي. كذلك فإن عالم الذهن والأفكار الفردي على صلة وثيقة بالعين، ولعل كل تعابيرنا عن التفكير من نظرية إلى آخر ما هنالك متصل باستعارات بصرية"[33]

وعلى ذلك فإن القناة التواصلية الشفوية بطبيعتها تفرض الوضوح والحضور، وهي طبيعة تواصلية يفرضها التواصل الشفوي الذي يعنى بسرعة إفهام المتلقي، وهذه البيئة بطبيعتها أيضا فرضت عادات يفرضها المستمع (المتلقي) بحضوره، ومشاركته في بنية الكلام، أما في التواصل المكتوب فإن الأمر يختلف؛ لأنه تواصل مؤجل، يتسم بغياب المتلقي أثناء الإرسال، وبغياب المؤلف أثناء التلقي؛ مما يجعل الغموض الكتابي في مقابل الإيقاع الشفهي، وينظر إلى طبيعة الاتصال من زاوية القناة المستخدمة في إرسال الرسالة من جهة أنها قناة سمعية أو قناة بصرية، ومن الطبيعي أن تتأثر الرسالة بطبيعة قناة الاتصال؛ يضاف إلى ذلك أن حالة الإرسال والاستقبال في التواصل الشفهي من الممكن أن تتغير فيها أوضاع الاتصال، ويصبح المرسِل مستقبلا والعكس بالعكس[34].

الخاتمة:

تبيّن فيما تقدم أن النظرة الإسلامية العربية للإنسان والكون تختلف في أسّها وتركيبها عن النظرة الغربية، وقد تجلّى ذلك في عناية العرب البالغة في التفريق بين الإنسان والحيوان باعتبارهما مخلوقين مختلفين بما ميزهما الخالق، في حين أن الحضارة الغربية قائمة على فكرة النشوء والارتقاء والفعل الطبيعي.

هذا الاختلاف في الرؤية يجعلنا نبحث عن تراتبية الأفكار وتأصيلها، خاصة وأن علماء المسلمين نبعت أفكارهم من اليقين التام الذي لا يهتز للإله الواحد، ولما علمهم إياه الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد استلهموا جل أفكارهم اللغوية من ذاك المعين الذي لا ينضب، وكان هذا اليقين الداخلي الأساسي هو الذي منح المجتمع الإسلامي مرونته الاستثنائية في مواجهة الحضارة الغربية وموروثاتها[35]، وفي إطار هذه الدراسة فقد اتضح ذلك في اختلاف النظرة إلى الكتابة؛ فإن علماء العرب يرونها مساوية للفعل الشفهي، ويُعلون من شأنها وقَدْرِها، في حين يراها علماء الغرب ما هي إلا ناسخة للصوت الشفهي، وهي تزييف وخداع للصوت المنطوق، يضاف إلى ذلك اختلافهم في مميزات أو شروط نظام الاتصال كي يصح أن يطلق عليه لغة، فقد كانت الشروط العربية قبل النظام المتمثلة في الحاجات والعقول والاستطاعة، أما الرؤية الغربية فقد كانت وصفا لأداة الاتصال الشفهية المتمثلة في المحتوى الدلالي والتعبير الصوتي والتعاقبية والتزامنية، لأجل ذلك وجب علينا إعادة النظر والقراءة في المتاح اللغوي المعروض على طلابنا بهدف تأصيله وتأطيره بما يتناسب والمنطلقات اللسانية العربية القديمة ومقابلته بالحديث المعاصر قبل عرضه في قاعات الدرس.

الهوامش:

(1) ينظر: عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب والجامع في حكم العرب المعروف بكتاب الحيوان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس 1993، الجزء الأول، ص55.

(2) ينظر: بول فابر – كريستان بايلون، ترجمة: طلال وهبة، مدخل إلى الألسنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط 1، 1992م، ص30 وما بعدها.

(3) ينظر: بول فابر، مدخل إلى الألسنية، مرجع سابق، ص43– 44.

(4) ينظر: عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج1، ص45.

(5) ينظر: ابن سيده علي بن إسماعيل الأندلسي، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، المخصص، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت لبنان، المجلد الثاني السفر الثامن، ص85. كما ينظر: محمد كشّاش، لغة الحيوان، المكتبة العصرية صيدا– لبنان، ط 1، 2003م، ص122.

(6) ينظر: عمرو بن الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج5، ص91.

(7) المصدر نفسه، ج5، ص92.

(8) عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج4، ص10.

(9) المصدر نفسه، ج1، ص52.

(10) عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج7، ص9.

(11) المصدر نفسه، ج7، ص7.

(12) المصدر نفسه، ج7، ص9.

(13) المصدر نفسه، ج7، ص10.

(14) علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت– لبنان، ط 1، 1978م، ص40.

(15) عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج1، ص124.

(16) المصدر نفسه، ج1 ص124.

(17) عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج1، ص64– 65.

(18) عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب، مصدر سابق، ج1، ص65.

(19) المصدر نفسه، ج1، ص65.

(20) المصدر نفسه، ج1، ص53.

(21) المصدر نفسه، ج1، ص74.

(22) المصدر نفسه، ج1، ص50.

(23) ينظر: جيفري سامبسون، المدارس اللغوية، ترجمة: أحمد نعيم، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، ط 1، ص19.

(24) ينظر: المرجع السابق، ص33. كما ينظر: روي هاريس وتولبت جي تيلر، ترجمة: أحمد الكلابي، أعلام الفكر اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، ط 1، 2004م، ج 1، ص242.

(25) ينظر: جيفري سامبسون، المدارس اللغوية، مرجع سابق، ص37.

(26) ينظر: جيرار دولو دال، السيميائيات، ترجمة: عبد الرحمن بو على، دار الحوار، اللاذقية– سوريا، ط 1، ص58.

(27) فردينان دي سوسير، تعريب: صالح القرمادي، دروس في الألسنية العامة، الدار العربية للكتاب، طرابلس– ليبيا، 1985م، ص56.

(28) ينظر: ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد محمد مختار، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1972م، ص61.

(29) ينظر: منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب، ط 1، 1998م، ص108.

(30) مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق– سوريا، ط 1، 1989م، ص77.

(31) ينظر: المرجع نفسه، ص81.

(32) ينظر: المرجع نفسه، ص79.

(33) نورثروب فراي، تشريح النقد، ترجمة: محيي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب، طرابلس– ليبيا، ط 1، 1991م، ص35.

(34) ينظر: إيمانويل فويس، قضايا أدبية عامة، مرجع سابق، ص26.

(35)ينظر: توماس جولدشتاين، ترجمة: أحمد عبد الواحد، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، سلسلة عالم المعرفة، العدد 290، سبتمبر 2003م، مجلس الثقافة الكويتي، الكويت، ص114.

المراجع:

1. بول فابر– كريستان بايلون، ترجمة: طلال وهبة، مدخل إلى الألسنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب ط 1، 1992م.
2. توماس جولدشتاين، ترجمة: أحمد عبد الواحد، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، سلسلة عالم المعرفة، العدد 290، سبتمبر 2003م، مجلس الثقافة الكويت.
3. جيفري سامبسون، المدارس اللغوية، ترجمة: أحمد نعيم، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط 1، 1993م.
4. جيرار دولو دال، السيميائيات، ترجمة: عبد الرحمن بو علي، دار الحوار، اللاذقية– سوريا، ط 1.
5. روي هاريس وتولبت جي تيلر، ترجمة: أحمد الكلابي، أعلام الفكر اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، ط 1، 2004م.
6. فرديناند دي سوسير، تعريب: صالح القرمادي، دروس في الألسنية العامة، الدار العربية للكتاب، طرابلس– ليبيا، 1985م.
7. علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت– لبنان، ط 1، 1978م.
8. علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، المخصّص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت– لبنان.
9. عمرو بن بحر الجاحظ، البارع في الأدب والجامع في حكم العرب المعروف بكتاب الحيوان، دار المعارف للطبعة والنشر، سوسة– تونس، 1993.
10. ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد محمد مختار، منشورات جامعة طرابلس، طرابلس ليبيا، 1972م.
11. مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق– سوريا، ط 1، 1989م.
12. محمد كشّاش، لغة الحيوان، المكتبة العصرية، صيدا– لبنان، ط 1، 2003م.

13. منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 1998م.

14. نورثروب فراي، تشريح النقد، ترجمة: محيي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب، طرابلس– ليبيا، ط 1، 1991م.